مع انتشارها بينهم لا يدل على استحسانهم لها ولا على أنها من الدين ومن الصواب والهدى
وهو بلا شك ولا ريب كما أن انتشار البدع والخرافات والضلالات المختلفة القبيحة الشنعاء بين
المسلمين وفي أكثر الأقطار الإسلامية مع سكوت الجماهير عليها بل مع تصويب الكثير منهم لها لا يدل يقينا
على أنها من الإسلام ومن الدين الذي جاء به محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ولو كان ذلك كذلك
لما احتاج العلماء في كل عصر ومصر إلى تأليف الكتب الكبار والصغار في التحذير من البدع المنتشرة
بين الجماهير وفي الدعوة إلى تركها والذود عنها... وكما أن ارتكاب أكثر المسلمين في أكثر الأقطار الإسلامية
للمعاصي والآثام لا يدل على أن ذلك من الإسلام والدين... وكما أن ترك أكثر الحكومات الإسلامية
- بل كلها إلا ما شاء الله - للعمل والأخذ بالقوانين الإسلامية على اختلافها - مع سكوت الجماهير عليه
بل سكوت العلماء ورجال الشريعة - لا يدل على أن الحكومات الإسلامية مصيبة راشدة إذ تركت الشريعة
وأخذت بالقوانين الوضعية الإفرنجية... وكما أن انتشار المظالم من مكوس وغيرها بين
المسلمين وتهافتهم على الأخذ بها وتفننهم فيها مع سكوت الجماهير بل مع سكوت رجال الدين والشريعة لا يدل
على أن هذه المظالم مباحة في الإسلام أو مباحة في رأي رجاله... فانتشار هذه القباب والأبنية على القبور
بين المسلمين في أكثر الأقطار الإسلامية ليس دليلا ولا شبه دليل على أنه من الإسلام كما أن ضعف
المسلمين اليوم وانحطاط الكثير منهم ~~وجهلهم~~ وتخاذلهم وتفرقهم وجهلهم وشيوع الفساد في سائر
طبقاتهم وهيئاتهم ليس دليلا على أن شيئا من ذلك من الإسلام أو مما يقره الإسلام أو مما يتساهل
في حربه وذمه وإنكاره... ففساد أعمال الجماهير منهم كفساد أخلاقهم وعقولهم وعقائدهم لا يدل
بشيء منه على أن الإسلام يرضاه أو يقره والإسلام لا يلام بشيء منه ولا يحمل تبعته ووزره بلا
ريب... فوجود هذه القباب على أكثر قبور ~~المسلمين~~ الصالحين والأنبياء ~~وعلى قبر الرسول~~
في غالب البقاع الإسلامية ووجود القبة على القبر النبوي الشريف لا يكون نوعا من أنواع الدلالة
على أن عقد القباب على القبور من دين الله ومن الشرع المحمدي، وهذا ظاهر لا ريب ولا خفاء فيه.
والاحتجاج بهذا احتجاج بلا شك؛ وأعداء الإسلام اليوم يحاولون عيبه ومؤاخذته بأعمال أهله
وعقائدهم الفاسدة وترهاتهم الفاضحة وضعفهم وانحطاط مداركهم الأثل الحنيف، وقد كان من
دفاع المخلصين للإسلام عن الإسلام إزاء هذا الاتهام والمحاولة أن قالوا: إن الإسلام غير من
يدعون أنهم مسلمون وأن الدين غير الأهل وأن بينهم وبينه بونا بعيدا وبعدا شاسعا وأن
ما هم عليه غير ما جاء به من عقائد وأعمال وعلم وفكرة وكمال وأنه هو الحجة عليهم وليسوا
هم بحجة عليه وأن من أراد أن يعرف الإسلام فلينظر إلى حقائقه المثبتة في القرآن وفي السنة
لا إلى خرافات من ينتحله وجهالاتهم... وكان هذا دفاعا صحيحا صادقا حاسما، أو هذا
المخالف فيريد أن يقر هذه التهمة التي يقذف بها دين محمد الإسلام ويحاول أن يقرها وأن يجعل
صادقة واقعة ويدعو بجعل أعمال المسلمين وعقائدهم وجهالاتهم حجة عليه وحاكمة متحكمة
فيه... فجاء هذا المستدل ليؤكد ذلك الاتهام خطأ وظلما وعدوانا ظاهرة

~~الثاني~~ الوجه الثاني

المبطل لهذه الحجة أن يقال إن الإجماع الصحيح الذي لا ريب ولا نزاع فيه هو ما سبق حدوث البدعة
أعني بدعة البناء على القبور - من انعقاد المسلمين وفيهم خير القرون - قرن الصحابة وقرن التابعين
وقرن تابعي التابعين - على عدم البناء على القبور وعدم عقد القباب وعدم بنية المساجد فوقها أو حولها
أو في ما يقرب منها. فقد مضى الصحابة ومضى التابعون ومضت قرون عدة لم يحاول الملوك
أحد فيها أن يبنوا شيئا على قبر لا على قبر نبيهم ولا على غيره من القبور: لا مسجدا ولا
قبة ولا غيرها. وهذا إجماع لا ريب فيه ولا خفاء، وهو إجماع يفوق كثيرا من الإجماعات
التي تدعى والتي يقال إنه لا يسوغ خلافها ولا الخروج عليها. ولا ريب أن إجماع الصحابة وحدهم
حجة لا جدال وبرهان ظاهر، فكيف بإجماع الصحابة مع التابعين مع تابعي التابعين مع عدة قرون
بل كيف بإجماع يكون فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد مات الرسول وقد دفن كثيرا من
أصحابه حتى الذين من أكابر المسلمين فلم يبن على أحد منهم قبة ولا مسجدا ولا بناء ولم يرفع